



التوبة من أجل الملكوت والسلام

رسالة راعوية

بمناسبة الصوم الكبير.

لغبطة البطريرك فؤاد الطّوال

بطريرك القدس للاتين

الزمن الأربعيني ٢٠١٢

مطبعة البطريركية اللاتينية - القدس

بيت جالا - ٢٠١٢

أيها الإخوة والأخوات في المسيح،
«التعمة عليكم والسلام!»

(١) نقرأ في الإنجيل الطاهر أن «يسوع صام أربعين يوماً وأربعين ليلة»
(متى ٤: ٢) وكان ذلك في منطقة صحراوية على بعد نحو أربعة
كيلومترات شمال غرب مدينة أريحا. وحسب التقليد ودلائل أخرى
يقوم الموقع تحديداً على جبل «قرنطل».

في القرن الثاني عشر امتلك هذا الجبل القانونيون اللاتين للقبر
المقدس وسكنه رهبان دُعوا «إخوة جبل الأربعين»، على موقع يشهد
له أنه مكان تجربة المسيح. ويومّه الحجاج المسيحيون من جميع أنحاء
العالم، بالاضافة الى مؤمني الأراضي المقدسة.

في هذا الموقع المميّز لا تكتفي كنيسة القدس أن تذكّرنا بتاريخ
الخلاص بل تقدّم أيضاً بشكل فريد جغرافية الفداء.

(٢) صيام لم يكن الرب بحاجة اليه!

من الناحية النظرية، كان بإمكان يسوع أن يمتنع عن تناول
الطعام بأعجوبة. ولكنّه أراد «أن يكون شبيهاً بنا نحن إخوته البشر،

مجرّباً مثلنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئة» (عبرانيين ٤ : ١٥). كما كان السيّد المسيح في غنى عن ممارسة الصوم وكذلك عن قبول العماد على يد يوحنا المعمدان، إذ لم يشكّلا عنده حاجة شخصيّة. على النقيض من ذلك نحن بحاجة ماسّة الى الصوم والصلاة والصدقة والصلاح والمصالحة. وهي ممارسات ضروريّة لأنّها تستند الى التوبة للتكفير عن خطايانا. بطبيعة الحال، لا يمكننا أن نصوم أربعين يوماً وأربعين ليلة من غير تناول أيّ طعام. لكنّ الكنيسة تحافظ على هذه الفترة الزمنيّة التي قضاها المسيح في البريّة لمُدّة أربعين يوماً في الصوم والصلاة، رغبة منها في أن «نقتدي بالمسيح» (١ كور ١١ : ٢) الذي أراد أن يكون لنا مثلاً يحتذى به في كلّ شيء، في الافكار والأخلاق (فيلبي ٢ : ٥).

في العهد القديم نقرأ أن النبيّ موسى صام أربعين يوماً قبل أن ينال لوحيّ الوصايا (عن خروج ٣٤ : ٢٨-٢٩)، كما صام إيليا تلك المدة، قبل أن يقابل السيّد الرّبّ على جبل حوريب. (عن الملوك الاول ١٩ : ٨).

في تجلّي الرب على جبل طابور، هاتان الشخصيتان اللتان صامتا لمُدّة أربعين يوماً، ظهرتا جنباً إلى جنب مع المسيح في المجد.

٣) الصوم الوقائي والتكفيريّ

في رسالة الصيام الكبير لسنة ٢٠٠٩ يطرح قداسة الخبر الأعظم السوّال: «آية قيمة وأيّ معنى يمكن أن يحمل إلينا اليوم نحن

المسيحيين حرماننا أنفسنا وأجسادنا من مأكولات ومشروبات قد تكون في حدّ ذاتها حسنة ونافعة ومفيدة لبقائنا؟) ويجب قداسته: «يعلّم الكتاب المقدّس والتقليد المسيحي أنّ الصّوم معونة عظيمة تساعدنا أن نتجنّب الخطيئة وكلّ ما يؤدّي إليها». وفعلا، يشير الأب الأقدس في رسالة الصيام لسنة ٢٠١١ إلى «جشع التملّك»، وكأنّ البشر يريدون أن «يأكلوا الدّنيا». فنحن لسنا ملاّكين للخيرات التي يحوزتنا، بل وكلاء عليها. لذا لا يجوز أن نحسبها ملكا لنا في المعنى المحصرّي بل هي وسيلة بها نجسّد عناية الله نحو القريب وبها نعيش الشركة الكنسية كما حدث بجماعة أورشليم الأولى (٢ قور ٨-٩).

إن كلمات القديس يوحنا تتردد بنبرة توبيخ: «من كانت له خيرات الدنيا ورأى بأخيه حاجة وأغلق أحشاءه دون أخيه، فكيف تُقيم فيه محبة الله» (١ يوحنا ٣: ١٧).

لنا نحن الخطأة المساكين والمعرّضين باستمرار للتقصير والخطأ، يُعدّ الصوم وسيلة فعّالة لظهار توبتنا ورغبتنا في إصلاح الضرر الذي اقترفناه.

لقد دعا النبي يونان أهل نينوى للتوبة من خلال الصوم. وعلمنا يسوع أنّ الصوم ينبغي أن يُمارَس في إطار من السريّة والتكتم من غير مباحاة أو نفخ الأبواق (راجع متى ٦: ١٦). «لا تدع يدك اليسرى تعلم بما تصنعه يدك اليمنى، حتى تكون صدقتك في الخفية» (متى ٦: ٣-٤). «إذ هناك فرح أكبر بالعطاء مما في الأخذ» (أعمال ٢٠: ٣٥).

وهذه السرية في الصيام من غير مباحة، لا تناقض الصوم الجماعي العلني الذي تطلبه الكنيسة لكي يتحد المؤمنون في توبتهم، ولئلا يترك الصوم للمبادرات الفردية الاعتبارية بحيث يصوم البعض معظم أيام السنة، ويكاد سواه أن لا يصوم على الاطلاق.

لقد حدد يسوع خصوصية الصوم المسيحي، على النقيض من صوم الفريسيين وتلاميذ يوحنا. المسيحيون «سوف يصومون عندما يُرفع العريس من بينهم، أي يُرفع على الصليب (مرقس ٢: ١٩-٢٠). وعليه بدأ المسيحيون عبر التاريخ يصومون كل سنة من خميس الأسرار إلى صباح يوم القيامة. ثم راحوا يصومون اسبوعيا كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة (كتاب "تعليم الرسل الاثني عشر"، رقم ٨). وكان طبيعيا أن يسبق صيام من أربعين يوماً عيد القيامة المجيد. فمسيرة الصيام تجرد تماماً في الثلاثية الفصحية وبالأخص في سهرة سبت النور.

تعدّ التوبة موقفاً سليماً لأنها تمثل «العودة» الى الربّ وإلى الخير، عودة الابن الضال إلى الأب (راجع لوقا ١٥) ومن المؤثر أن السيد المسيح ويوحنا المعمدان اجتمعا على القول بالحرف الواحد «توبوا». والتوبة تعني التحوّل والتغيير الجذري في العقليّة والمشاعر والأفعال وردّات الفعل.

٤) اهتداء الأفراد والشعوب وتوبتهم النصوح

يقع زمن الصوم في الكنيسة في فترة الإعداد والاستعداد لعيد الفصح المجيد، «في الأيام التي يُرفع فيها السيد المسيح على الصليب».

«مسيرة الصيام»، تدعوننا:

١) إلى التأمل في سرّ الصليب، كي نصير «على صورة المسيح في موته» (عن رومية ٦ : ٥) فنحقق بالتوبة تغييراً عميقاً في حياتنا.

٢) أن نقاد لعمل الروح القدس فيدّلنا كما تبدّل القديس بولس على طريق دمشق.

٣) وأن نكيّف بحزم حياتنا وفقاً لإرادة الله، فنتحرّر من أنايتنا فنتجاوز غريزة التسلط وشهية الامتلاك والتخزين. ونفتح قلوبنا لمحبة المسيح ومحبة القريب والفقير والمحتاج. فترة الصيام هي أيضاً زمن مناسب لنعرف هشاشتنا ونقبل من خلال فحص ضمير صادق نعمة سرّ التوبة المجددة فنبصر بعزم نحو المسيح.

في هذا العام يتوسّط الصوم الكبير فترة انعقاد مجمعي أساقفة في غاية الأهميّة. انعقد الأول في العام الماضي حول مسيحيّ الشرق الأوسط. وفي هذا العام سوف يتناول سينودس الأساقفة موضوع "البشارة الجديدة للأمم". التوبة هي المفتاح الجوهريّ لحلّ

المشاكل التي تبدو مُستعصية، وإنهاء الأعمال العدائية التي تبدو وكأنّها لا نهاية لها ولا حلول شافية. تتطلّب منّا أن ندرك أنّه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله» (متى ٤، ٤)، وأنّه ينبغي أن «نسهر ونصليّ لئلاّ ندخل في تجربة» (متى ٢٦ : ٤١). الصوم، في هذه الحالة هو ترياق ممتاز ضد تجاوزاتنا وتبذيرنا وإفراطنا في الطعام أو الشراب. فصومنا يجمع بين الصلاة وعمل الخير وإعطاء الصدقة، وهذه الفضائل هي مترابطة ومتكاملة لبعضها البعض.

لقد حان الوقت لشعوب منطقتنا التي هي في صراع مستمرّ للعودة إلى الربّ، من خلال تطبيق الوصايا العشر، خصوصاً احترام حقّ الآخر في الحياة والممتلكات والحقوق المدنيّة. نحن بحاجة الى تغييرات جذرية تحلّ فيها الصراعات القائمة بين الشعوب.

٥) الصوم وقت الأزمات!

وسط الصعوبات والضيقات علينا أن نتصرف بحكمة وتعقل وأن نتعاون في المشاركة في الممتلكات وتكافؤ الفرص، كما كان يفعل المسيحيون الأولون في المدينة المقدسة (أعمال الرسل ٢) وكان قداسة البابا بندكتوس السادس عشر قد أعلن من غير تردد عند انفجار الأزمة الاقتصادية في العالم وانهيار العملات والإمبراطوريات المصرفية: «ألذي يبني على المال يبني على الرمال» وأن أساس الأزمة الاقتصادية المعاصرة هي أولاً أزمة أخلاقية.

٦) الصوم وسيلة لا غاية، ومرحلة لا نهاية

لا نصوم في سبيل الصوم ولا نرى فيه هدفاً بحد ذاته بل وسيلة نعلنها في مقدّمة القداس الالهي: «يا رب، انت عن طريق الصوم الجسدي تسمو بالنفس وتكبح الرذائل وتهب لنا القوة والثواب». نصوم لتتشبه بالسيّد المسيح! ونصوم لنشعر مع الجائع والمعوز والمحروم ونصوم لنروض أجسادنا على روح التضحية والعطاء، ولترافق صيامنا الصلاة والصدقة والمصالحة بين الأفراد والعائلات.

٧) الصّوم من أجل السّلام

مازلنا، في الأرض المقدّسة والشرق الأوسط تحت وطأة العنف. والسّلام هو من أعظم عطايا الله، ولكنّه تعالى وكلّ الإنسان أن يبيّنه ويبحث عنه:

– بما أن يسوع المسيح قد أسقط في جسده المصلوب، الجدار الفاصل بين قوم العهد القديم وسائر الشعوب (عن أفسس ٢ : ١٤).

– وحين وُلد أنشدت الملائكة: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السّلام» (لوقا ٢ : ١٤)، وقبل آلامه استودع تلاميذه قائلاً: «السّلام استودعكم، سلامي أعطيكم» (يوحنا ١٤ : ٢٧).

– وفي التطويبات بيّن أنّ السعادة هي «للساعين إلى السّلام» (متّى ٥ : ٩).

– وأنّ «الودعاء هم الذين يرثون الأرض» (عن متّى ٥ : ٣).

لكل هذه الدوافع نصلي ونصوم ونحن نحرم أنفسنا من
طيبات مشروعة، لأجل السلام في بلادنا وفي بيوتنا وقلوبنا علها
تتحقق فينا وفي بلادنا كلمات الكتاب المقدس.

أخيراً: كيف نصوم؟

تطلب منا الكنيسة أمناً حداً أدنى من الانقطاع والصوم يكون
قاسماً مشتركاً ومُلزماً لكل المؤمنين ويقوم على ما يلي:

أولاً: من بلغ سن الرابعة عشرة عليه الانقطاع عن اللحوم والزفر
كل يوم جمعة من زمن الصوم الأربعيني بالإضافة إلى يوم الأربعاء
الرماد.

ثانياً: من بلغ سن الحادية والعشرين وحتى سن الستين عليه أن
يكتفي بوجبة رئيسية واحدة خلال النهار. ولا مانع من أخذ
شيء بسيط صباحاً ومساءً للمحافظة على الصحة العامة.

ثالثاً: المرضى والمسنون معفيون من هذه الالتزامات إذا كانت
تسيء لصحتهم.

وبالإضافة إلى الطعام، هنالك الصوم الأكبر وهو الابتعاد عن
الخطيئة بكل أشكالها. انه الصوم الذي يرضي الرب بالأكثر: الصوم
عن زلات اللسان، وعن شهوة العين، صوم الأذن عما يخدش الحياء
والإيمان، وتصويم المخيلة والذاكرة السلبية وباقي الحواس. هذا الصوم
يعني انقطاع الحواس عن ارتكاب الخطيئة بالفكر والقول والفعل.

كما يُحَبِّد الامتناع عن المأكولات الشهية والغالية وعن المشروبات الروحية والتدخين ومتابعة المسلسلات التلفزيونية الخفيفة والإدمان على الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي كي نترك فسحة أكبر للتواصل مع الله.

وكي يكتمل الصوم، لا بدّ من تخصيص ثماره المادية لمشروع خاص أو عام. ولتضافر الجهود في تنفيذ مشروع حيوي للأبرشية، ناشد المؤمنون بأن يحولوا ثمرة صومهم لمشروع بناء كنيسة ودير المغطس على ضفة نهر الأردن، تذكراً للسيد المسيح الذي تعمّد وصام وانتصر على الشيطان في تلك المنطقة بالذات.

من كنيسة الجلجلة والقيامة والعنصرة، في زمن الصوم هذا، نتوسل بصلواتنا، سائلين المسيح المنتصر على الموت أن يُظهر قدرته «التي تفوق كل معرفة» مباركاً صومنا، قابلاً توبتنا مستصحباً إيانا في موكب مجده، مع ما يثقلنا من ضعف وما يلمّ بنا من عناء (عن أفسس ١: ١٥-٢٣).

«ليبارككم الرب صانع السماء والأرض جميع أيام حياتكم»
(مزمور ١٢٧: ٥).

وصوماً مباركاً وفصحاً مجيداً!

† البطريرك فؤاد الطوال

